حكيم فيليبين

حينما يُذكر اسم فيليبين وسكانها الذين ساءهم الاسبانيون ضروب الذل والاستعباد الى ان نُشرت فوق جزائرهم الراية الاميركية لا يتصوَّر السامع الاَّ اناساً سود الابدان مثل زنوج افريقية بعيدين عن كل اسباب الحضارة ويظن اننا نعني بحكيم فيليبين رجلاً من الاوربيين سكن تلك الجزائر او وُلد فيها من ابوين اوربيين فنُسب اليها . لكن هذا الظن على خلاف الواقع لان الحكيم المشار اليهِ من اهالي فيليبين ابًا عن جد ومن اعرقهم نسباً واشدهم حميَّة كما انهُ من اوسعهم علماً واعلاهم همَّة وقد ختم حميتهُ الوطنيَّة بدمهِ . وها نحن موردون طرَفاً من سيرتهِ وفلسفتهِ نقلاً عمَّا كتبهُ عنهُ الاستاذ بلومنترت الالماني وكان صديقاً لهُ قال :

في الثلاثين من دسمبر سنة ١٨٩٦ قتَل ولاة الامر الاسبانيون في مانيلا اعظم ابناء فيليبين الدكتور ريزال زاعمين انهُ من مهيجي الثورة فيها . وهو من النسل احدى القبائل المغوليَّة الاصل التي استوطنت جزائر فيليبين من عهد بعيد جداً . درس في مدارس الاسبانيين في بلادهِ وتعلم علم الطب في مانيلا ومدريد ونال من مدرسة مدريد الجامعة دبلوما الدكتورية في الطب والفلسفة . ثم تخرَّج من مدرسة باريس ومدرسة هيدلبرج ومدرسة ليبسك ومدرسة برلين وعكف على المباحث اللغويَّة والشعبيَّة وانتظم في عضويَّة جمعيَّة برلين الانثروبولوجيَّة اي الباحثة عن الانسان ونشئهِ . وألَّف رواية ترجمت الى اللغة الانكليزيَّة باسم طيران النسر اغاظ منها ولاة الامر الاسبانيون في مانيلا فلم يسمحوا لهُ بالاقامة في بلادهِ فطاف في بلاد يابان واميركا الشماليَّة ثمَّ جاء الى مدينة لندن واقام فيها مدة وهو يوسع معارفهُ اللغويَّة والَّف رواية أُخرى سياسيَّة المغزى ثم انتقل الى هنغ كنغ ومنها الى بورنيو وعزم ان ينشئ هناك مستعمرةً لابناء وطنهِ الذين تضطرهم احوال السياسة الى مهاجرة بلادهم . وأُذن لهُ حينئذٍ في زيارة وطنهِ ولكن قُبض عليهِ حالما وطئتْ قدماهُ وأُودع السجن ثم لما انتشرت الفتنة في البلاد سنة ١٨٩٦ اتُّهم بانهُ مثير نارها فبرَّأ نفسهُ ونجا واتُّهم ثانيةً وثالثة وفي المرة الثالثة حكم عليهِ بالقتل فذهب شهيداً

ومن المباحث الفلسفيَّة التي عكف عليها تحليل ما يعتقدهُ البيض في السود وما يعتقدهُ السود في البيض وكان من اقدر الناس على هذا البحث لانهُ من السود وقد نشأ بينهم وتعلَّم علوم البيض وعاشرهم زماناً طويلاً فخبر احوال امم كثيرة مختلفة الالوان والدماء في وطنهِ فيليبين وفي اليابان وهنغ كنغ واوربا واميركا وكان يعرف لغات كثيرة معرفة تامَّة فيستطيع

ان يطالع ما كتب فيها في هذا الموضوع ونحوهِ من المواضيع المرتبطة بهِ. وقصر بحثهُ على علاقة السود بالبيض في فيلبين وما يشعر بهِ كلُّ فريق منهما نحو الآخر لكي لا يتسع مجال البحث عليهِ

قال انهُ رأى وهو فتى صغير السن ان الاسبانيين المقيمين في فيلبين يحتقرونهُ لانهُ من اهالي فيلبين لا لسبب آخر فلما رأى منهم ذلك جعل يبحث عمَّا اذا كان هناك مسوّغ يسوّغ لهم ولغيرهم من الاقوام البيض الوجوه ان يحتقروا اناساً يعقلون مثلهم ويدرسون مثلهم لان جلدهم اسمر فان الاوربيين يدَّعون انهم سادة الناس وموجدو العلم والعمران وانهم هم نوع الانسان العاقل وسائر الشعوب دونهم ولا يستطيعون ان يبلغوا مبلغهم . وقد لا يجاهرون بهذه الامور ولكن معاملتهم لغيرهم تدل على انهم يعتقدون ذلك ويجرون عليهِ . فقال الدكتور ريزال في نفسهِ ترى هل هذه الدعاوى صحيحة . قال ذلك وهو تلميذ في المدرسة ثم نظر الى من حولهُ من التلامذة الاسبانيين وقابل قواهُ العقليَّة بقواهم فوجد ان لا فرق بينهُ وبينهم في المدرسة فان فيهم المجتهد والكسلان والاديب والسفيه والذكي والخامل كما في ابناء وطنهِ . ثم جعل يناظرهم لا كولد يسابق ولداً آخر بل كشعب يناظر شعباً وكان يسرُّ كلما حلَّ مسألة اعتاصت عليهم. واقتنع من ذلك الحين ان القوى العقليَّة واحدة في ابناء بلادهِ وفي الاسبانيين وتجري على اسلوب واحد في التصور والاستدلال وسائر الافعال العقليَّة

وولَّد هذا الاستنتاج في نفسهِ شيئاً من التباهي الجنسي فاعتقد ان التغال الذين هو منهم ارقى من الاسبانيين عقلاً (ولم يكن قد رأى غيرهم من البيض) لان الاسبانيين يتعلمون بلغتهم واما هو وابناء امتهِ فيتعلمون بلغة غير لغتهم فيضطرون ان ينفقوا جانباً من جهدهم في فهم اللغة الاسبانية وهم يتعلمون العلوم بها وهذا لا يفعلهُ اولاد الاسبانيين فاذا استطاع ابناء امتهِ ان يجاروا اولاد الاسبانيين فهم اذكى منهم عقلاً لكنهم لا يجارونهم فقط بل يفوقونهم ايضاً

وهناك امر آخر جعلهُ ينكر امتياز الاوربيين عقلاً وهو انهُ رأى الاسبانيين يعتقدون ان الوطنيين يحسبونهم اسمى منهم عقلاً وافضل جبلةً وكان يعلم ان اكرام ابناء وطنهِ للاسبانيين لم يكن ناتجاً عن اعتقادهم ان الاسبانيين افضل منهم بل عن خوفهم منهم او عن تملقهم بقصد الاكتساب بالتقرُّب منهم ما دامت ادارة البلاد في يدهم وقد لحظوا ان هذا التملق يرضي الاسباني فاكثروا منهُ واذا ادار ظهرهُ اغتابوهُ وضحكوا عليهِ واستخفوا بهِ لانهُ لا يدرك اخيالهم عليهِ. وهذا اتخذهُ ريزال وهو فتىً دليلاً على امتياز ابناء بلادهِ على الاسبانيين ذكاءً ودهاءً ثم اضطرَّ ان يعدل عن هذه النتيجة لما زاد اختباراً وعاشر غير الذين عاشرهم في صباهُ وقال اني صرت كلما قرأت في كتب الاوربيين او سمعت في حديثهم ما تشتمُّ

منهُ رائحة الاستخفاف باهل وطني اضحك على نفسي وعلى الغيرة العمياء التي كنت اغارها في صباي وصرت اراجع المثل الفرنسوي القائل من ادرك الامور تساهل فيها

وانقشعت الغشاوة عن عينيهِ حينما اتى اسبانيا واقام فيها فان الاسبانيين في فيلبين عنوان التعصب والاستبداد راهبهم وضابطهم وحاكمهم سواء . اما في مدريد فالامر على ضد ذلك . رأى هناك المعطّل والدهري يصرّحان بآرائهما علناً وسلطة الحكومة على اضعفها والاحرار يناظرون الحزب الاكليريكي والكارلوسيون يبثون آراءهم في كل مكان

وزادت مداركهُ اتساعاً بسكناهُ في فرنسا والمانيا وانكلترا واتّسع نطاق معارفهِ فانكشف لهُ معنى الشعوب ومزايا الامم فقرأ اشهر الكتب الموضوعة في البحث عن طوائف الناس واخلاقهم ودرس طبائع الفلاحين في فرنسا والمانيا حاسباً انها ادل على اخلاق الامّة من طبائع سكان المدن وقابلها بطبائع اهالي بلادهِ وكان ينقطع الى بعض القرى المنفردة يقيم فيها الاسابيع والشهور يراقب احوال الفلاحين ويدرس طبائعهم وجمع نتائج ابحاثهِ في القضايا التالية

الاولى : ان طوائف الناس تختلف منظراً وبنية ولكنها لا تختلف عقلاً او نفساً فالبيض والصفر والسمر والسود يشعرون ويسرّون ويتألمون على حدّ سوى وتؤثر فيهم المؤثرات على منهاج واحد ولكنهم يختلفون في التعبير عمّا يخالج ضمائرهم . وطرق التعبير هذه لا تجري مجرًى واحداً في الشعب الواحد بل تختلف اختلافاً كبيراً تبعاً لاختلاف الاحوال

الثانية : ان اختلاف اجناس الناس امر عرفي فقط والحقيقة انهم جنس واحد لهُ طبقات مختلفة اختلافها اجتماعي اكثر مما هو جنسي كأنّ كل شعب منها جبلٌ فيهِ طبقات كثيرة . وكما ان بعض الجبال يكون ناقصاً الطبقات العليا ولكن الجبال كلها تحوي الطبقات السفلى كذلك طوائف الناس ينقص بعضها الطبقات العليا ولا ينقصها كلها شيء من الطبقات السفلى

ففي فرنسا والمانيا القديمتي العمران جانب كبير من السكان يشبه قبيلة التغال ولا يمتاز عنها الاّ باللباس واللغة ولون البشرة لكن الشعوب تفترق عن الجبال في انها تنمو والجبال لا تنمو فتولّد فيها الطبقات العليا وتولّدها لا يتوقف على مقدرتها العقليّة وحدها بل لهُ اسباب أُخرى ايضاً بعضها معلوم وبعضها غير معلوم ومنها ما يأتي اتفاقاً

الثالثة : يقول كثيرون من حكام المستعمرات ومن رجال العلم ايضاً ان عقول سكانها محدودة لا تبلغ عقول الاوربيين فان صحّ ذلك فسببهُ أن العقل الثاقب كالغنى الوافر لا يناله كل انسان فان كان الغني يحسب انهُ ولد غنيّاً فهو خادع نفسهُ لانهُ ولد فقيراً عارياً مثل افقر الناس لكنهُ ورث الثروة التي خلّفها لهُ والداهُ كذلك الانسان يرث العقل الثاقب من

اسلافهِ . فان الشعوب التي دعتها احوال المعيشة الى استعمال قواها العقلية وترويضها نمت قواها حتى صارت اقوى ممَّا هي في غيرها واورثتها لاولادها فزادت فيهم مضاءً بالاستعمال . نعم ان عقول الاوربيين ذكيَّة الآن ولكن اسلافهم الاولين لم يكونوا كذلك بل قد مضى عليهم قرون وهم يجاهدون ووافقتهم احوال الزمان وخدمهم السعد فتمتعوا بالحرية والشرائع العادلة وقادهم اناس فضلاء حتى تمكنوا من توريث اولادهم ذكاء العقل . والموصوفون منهم بالفطنة والذكاء الآن لم يبلغوا ما بلغوهُ الاَّ بعد ان جاهد اسلافهم قرونًا كثيرة في هذا السبيل . ويظهر من التاريخ ان الرومانيين لم يكونوا يحسبون الالمانيين في عهدهم افضل ممَّا يحسب الاسبانيون اهالي فيلبين الآن . ولما مدح تاشيتوس الالمانيين كان مدحهُ لهم فلسفيًّا محضًا مثل مدح اتباع روسو لاهالي تهيتي حاسبين اياهم عنوان البشرية

الرابعة : ان احتقار الاسبانيين لاهالي فيلبين يسهل تفسيرهُ ولكن ذلك لا يخلصهم من المؤاخذة . فان الضعاف لا يهاجرون بلادهم ولا يهاجر الاَّ الاشدَّاء وهؤلاء يصلون الى المستعمرة وقد رسخ في اذهانهم انهم آتون اليها ليسودوا اهاليها ثم هم اذا كتبوا عنها ذكروا اهاليها بالازدراء والاهالي لا يقرأون ما يُكتب عنهم او لا يستطيعون الردَّ عليهِ . وزد على ذلك ان هؤلاء المهاجرين يعاشرون الطبقة السفلى من الناس في الغالب فيصدق حكمهم على الاهالي كلهم كما يصدق حكم من يحكم على اخلاق الالمانيين والفرنسويين مثلاً من معاشرة بائعات اللبن وسائقة المركبات

الخامسة : ان الوصمة الكبرى على اهالي فيلبين هي لون جلودهم لا غير فان كثيرين من اهالي اوربا ارتقوا من ادنى المراتب الى اعلاها ولم يعترض عليهم احد واما الرجل منَّا فمهما امتاز بذكاء العقل وكرم الاخلاق يبقى لون وجههِ وصمة موصومًا بها امام البيض يحتقرونهُ لاجلها وتراهم يحاسبونهُ على كل هفوة . فاذا ارتقى ابن الاسكاف الاوربي وصار بارونًا نسوا اصلهُ واغتفروا زلاتهِ واما الرجل منَّا فان اخطأ ولو خطا طفيفًا هزوا رؤوسهم وقليوا شفاههم وقالوا ماذا يُنتظر منهُ اكثر من ذلك وهو وطني . واذا لم يؤاخذ بهفوة ولا خالف قاعدة من آداب المعاشرة وكان طبيبًا ماهرًا او قاضيًا عالمًا لم يُمدَح على مهارتهِ بل نُظر اليهِ بعين الاستغراب كما يُنظَر الى كلب يحسن اللعب في ملعب الخيل لا كما ينظر الى رجل من الاكفاء

ومن الغريب ان المرأة الالمانيَّة التي ترى من خادمتها ما يغيظها لا تشرك كل الجنس الالماني في لومها لها ولكن الاوربيين الذين يسكنون المستعمرات وخدَّامهم من اهاليها يأخذون الاهالي كلهم من غير حياء بجريرة خدامهم ويرتكبون هذا الوزر ولا ضمير لهم يوبخهم عليهِ

ثم ان التجّار الاوربيين يقصدون بلادنا لكي يغتنوا منها باسرع ما يمكن من الزمن فيشترون البضائع من الاهالي بابخس الاثمان ويرى الاهالي انهم عاملون على غشهم وابتزاز اموالهم منهم فيعاملونهم بالمثل ويكيلون لهم الصاع صاعين اذا استطاعوا واما معاملتهم بعضهم لبعض فليست كذلك بل هي على تمام الصدق والامانة ولذلك يعتقد الاوربيون ان الوطنيين كذابون خادعون ولا يخطر ببالهم انهم هم الذين الجأوهم الى الكذب والخداع بكذبهم وخداعهم

وقال الدكتور ريزال انهُ لما اتى اوربا ورأى كيف يعامل اهاليها بعضهم بعضاً لم يعد يعجب من معاملتهم لاهل بلادهِ

وكان هذا الرجل مصوراً ورسّاماً ونحّاتاً وعند الاستاذ بلومنترت ثلاثة تماثيل من عملهِ وهي بديعة الصنعة جدًّا تكاد تتكلم الواحد منها يمثل برمثيوس مقيداً والثاني يمثل غلبة الموت على الحياة وهو هيكل من العظام لابس قلنسوة راهب وفي يدهِ جسم فتاة . والثالث تمثال فتاة واقفة على رأس الموت وبيدها مشعال رفعتهُ فوق رأسها وهو يمثل غلبة المعرفة على الموت . انتهى

هذا ومَن طالع تاريخ الاوربيين في الهند وافريقية رأى فيهِ ادلّة كثيرة تؤيد ما قالهُ الدكتور ريزال وقد كنّا نظن ان النَّعرة التي ترى من بعضهم انما هي خاصّة بالذين اصلهم وضيع منهم او بالحديثي النعمة وهؤلاء ثقيلو الوطأة في كل مكان اوربيين كانوا او غير اوربيين انما ابناء البيوتات الكبيرة الرابون في النعمة والرفاهة فهم في الغالب ودعاء لينو العريكة . هذا الذي كنّا نراهُ فنطلقهُ على جمهور الاوربيين ثم اتضح لنا حديثاً ان النداء الذي نادى بهِ كبلن وهو ان اهالي اوربا واميركا سادة المسكونة وغيرهم كالانعام المسوّمة ويجب على السادة ان يتسلّطوا على الانعام ويسوسوها كما يسوس الانسان ماشيتهُ لكي يجز صوفها ويشرب لبنها ويستخدمها في قضاء حاجاتهِ هذا النداء صدى ما يشعر بهِ اكثر الذين يدهم الامر والنهي من الاوربيين وقد كاد الاميركيون يحذون حذوهم الآن حتى يصدق عليهم كلهم قول المتنبي

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفّة فلعلّة لا يظلمُ

والاّ فما معنى ايثارهم انفسهم على غيرهم من المشتغلين معهم من غير جنسهم ولو في ما لا تفاضل فيهِ وما اساسهُ الاول منع التمييز بين الناس كالتعليم والتبشير . وحقيقة الامر ان التنافس القديم الذي كان بين الشرق والغرب في عهد الفرس واليونان لا يزال جاريًا مجراهُ ولم يعد الآن سجالاً كما كان قبلاً لان الشرق استنام الى الذل منذ سنين كثيرة والغرب ركب متن السوابق ولن تتغير هذه الحال الاّ اذا فشت في اوربا ادواء الحضارة والرفاهة فافسدت عمرانها وقام في الشرق كثيرون من المصلحين فاصلحوا شؤون اهلهِ ومعتقداتهم